

## نقد آراء الفلاسفة في التراث الفكري اليوناني القديم حتى ظهور السوفسطائيين

الأستاذ

مها عيسى العبدالله

جامعة البصرة / كلية الآداب

### المخلص:

نحاول في هذا البحث التعرف على الملامح العامة للمواقف النقدية كما عكستها الأفكار النقدية للفلاسفة الذين سبقوا ظهور السوفسطائية .

لقد عرفت المدارس السابقة لظهور الحركة السوفسطائية النقد إلا أن ذلك النقد لم يكن نقداً قائماً على هدم الأفكار التي تنتقد بتقديم الأدلة على عدم صحتها ، وإنما كان النقد يتم عن طريق طرح الفيلسوف آراءه المخالفة لما سبقه من آراء ، فهو لا يهدم بقدر ما يقدم من الحجج والبراهين التي تثبت صحة آرائه .

رغم أن المدارس السابقة لظهور السفسطائية كلها قد عرفت النقد إلا إنها تميزت الواحد عن الأخرى ، ويمكن أن نشير إلى ذلك :

١. نقد الفلاسفة الأيونيين آراء بعضهم لبعض .
٢. نقد الفلاسفة الإيليين الفلاسفة الطبيعيين والفيثاغوريين .
٣. نقد فلاسفة الكثرة بعضهم لبعض كما نقدوا من سبقهم .

## ***The Critique of the Philosophical Views in Ancient Greece Till the Rise of the Sophists***

**Prof**

**Maha Essa Abdullah**

**Dept. of Philosophy/College of Arts**

### **Abstract :**

In this study we attempt to show the general features of the Philosophical critique as were reflected in their Philosophical views in pre-sophists period .

The Philosophical school which rose before the rise of sophists movement was familiar with philosophical critique, but it was not aimed to be a direct attack to the philosophical views but only concerned to marshal evidence to prove its position.

Proofs this could be noticed in the criticism of one philosopher to another or one school to another like the criticism of the School of Elea and the Pythagoreans and the Multiplicity school.

لعل من المناسب أن نشير في البداية الى أن من أرب هذه الدراسة المختصرة الكشف بأن الاتجاهات والمذاهب الفلسفية ، تمر قبل أن تتبلور أو قبل صياغتها النهائية في مدارس لها صفات الشمول والتكامل والبناء المنطقي ، في مخاضات نقدية تسير بموازاتها تعمل على إثراء حججها المنطقية وتخليصها من الشوائب التي تلحق بها ، مثل هذا النقد الفلسفي هو الذي يمنح الفلاسفة قدرتها على الإكتمال والإستمرار ، بتعديل مواقفها وإعادة صياغة قضاياها المنطقية ، كما تجد هذه الفلاسفة فيها ضماناً متابعة الآراء المتجددة ، وتقوم بتضييق الفجوات بينها وبين حقائق عصورها .

ويمكن أن يكون هذا النقد في جانب منه ضمناً يتخذ شكل طرح بدائل جديدة للأفكار مدعومة بالأدلة العقلية المنطقية ، كما يمكن أن يتخذ شكل تناول الأفكار الفلسفية نفسها بالنقد ، والكشف عن تناقضاتها أو نواحي الضعف فيها ، تمهيداً للبحث عن أفكار أخرى . أو الإكتفاء ببيان ضعف الأفكار وتمهاتها .

ففي دراسة مختصرة سابقة لنا تم التنويه بمواقف الفلاسفة النقدية في المسائل التي تتصل بالفكر الديني والسياسي وقد إتضح لنا كيف أن المواقف الفلسفية ، قد إنبتقت ومن ثم تكاملت واتجهت لتكون رؤى فلسفية ، من خلال نقدهم للدين السائد والعقائد السياسية التي عرفها المفكرون آنذاك .

وسوف نحاول في بحثنا الموجز هذا ، أن نرسم صورة نوضح فيها ما تم من نقد للفلاسفة ولللاسفة وأفكارهم الفلسفية عند اليونان في الفترة التي حددها البحث لنفسه ، متمثلة بأفكار عدد من الفلاسفة ، أي إننا سوف نحاول التعرف على الملامح العامة التي إتخذتها المواقف النقدية للفلاسفة كما تمثلت في نقد بعضهم لأفكار بعضهم الآخر . وسوف نشير هنا الى هذه المواقف النقدية كما تختلف وتتنوع من فيلسوف لآخر .

## **أولاً : النقد مع المدرسة الأيونية :**

نبدأ محاولة الكشف عن مواطن النقد لدى الفلاسفة السابقين للسفسطائيين وسقراط مع طاليس مؤسس المدرسة الملطية ، إحدى المدارس الأيونية ، فهو كما يرى النشارقد وجه الفلسفة

وجهتها الصحيحة ، إذ لم يساير الميثولوجيين بوضع تفسيرات للكون على لسان الآلهة التي تتحدث عن تشخيص القوى الطبيعية ، كيف ولدت وتناقلت ، وكيف تم صدور الأشياء عن تلك القوى . وعلى الرغم من إنه إنتهى لتفسير الكون تفسيراً فيه بعض الأثر لتفسير الميثولوجيين ، عندما إعتبر الماء أصل الأشياء إلا أن منهجه كان منهجاً فلسفياً مختلفاً يعتمد المنطق والأمثلة المستمدة من الواقع في البرهنة على أفكاره<sup>(١)</sup> . وقد أتبع طرائق منطقية تعتمد الأقيسة العقلية لدعم صحة آراءه ، وهي خطوة كانت في غاية الأهمية في ذلك العصر الذي لم يعرف فيه تفكيرٌ فلسفيّ خالص .

لقد خرج طاليس على التفسيرات الأسطورية بإنكاره تفسير ما يحدث بالطبيعة تفسيراً خيالياً وذلك إعتياداً على القول بقوى مفارقة لها ، فهو أولاً إختيار عنصراً من عناصر الطبيعة ليكون أصلاً لكل الموجودات ، كما انه اتبع طريقاً منطقياً لتحقيق صحة آرائه . وكانت تلك خطوة مهمة في طريقة التفكير وفهم الطبيعة .

إن رؤية طاليس هذه جاءت بسبب تمتعه بحس نقدي إستطاع به فحص ما كان سائداً. فبوسعنا أن نزعم أن طاليس قد جانب الى حدٍ كبير التفسيرات الغيبية ، وقام بتفسير العالم بالعالم نفسه .

إن تحوله بالفلسفة هذا التحول الكبير يمثل نقداً ضمنياً لكل الآراء الميثولوجية التي شكلت المواقف الفكرية لغالبية المفكرين . ويؤكد نيتشه ذلك بقوله : " يبرز طاليس كعالم مبدع بدأ يسر غور الطبيعة دون الاستعانة بالروايات الخيالية " <sup>(٢)</sup> هذا يعني انتقال البحث للكشف عن أسرار الطبيعة من التفسيرات الأسطورية الى التفسير الواقعي . وينسجم موقف ( برنت ) ( Burnet ) مع موقف نيتشه ، حيث يؤكد على أن طاليس هو أول شخص نستطيع أن نطلق عليه اسم عالم <sup>(٣)</sup> .

لقد جاءت هذه الخطوة – أي تفسير الطبيعة على أسس عقلية واقعية لا ميثولوجية – على يد طاليس مستعيناً بحسه النقدي الذي أوصله الى ذلك المنهج. فنأدى بأن الماء هو أصل الأشياء كلها، فهو العنصر الأول أو الجوهر الأوحده الذي يرد إليه كل شيء، بمعنى انه قد وجد أصل الأشياء في العالم ذاته، ممثلاً بشيء مادي ملموس <sup>(٤)</sup> . بكلمة موجزة تعد محاولة طاليس –

لتفسير أصل الأشياء بإرجاعها لعنصر مادي يكمن في الطبيعة ذاتها ، وليس لقوى مفارقة لها – إنتقالية جديدة في الفكر الإنساني من عالم الخيال الذي يمثل البدايات الأولى لعلاقة الوعي الإنساني بعالمه، الى عالم البرهان العقلي، الذي هو في جوهره ذو أساس نقدي ، مما يؤكد رفضه مسامرة التفكير الأسطوري وتجاوزه. وهذا لا يعني إلغاء الجوانب الفكرية في الأساطير بل تجاوز بعض جوانب محتواها الذي وجده الفلاسفة غير قابل للصمود أمام النظرة المنطقية الواقعية. وهذا لا ينطبق على طاليس وحده، بل أيضاً على الفلاسفة الطبيعيين الأوائل مثل أنكسيمندر، وانكسيمانيس، حيث تمكنوا من إحداث تقدم كبير للإتجاه العلمي ، بسؤالهم عن المادة الأولى التي يتألف منها الكون، خلافاً للتفكير الأسطوري الذي آمن بأن هذا الكون قد ولد كما يولد الإنسان من أب وأم<sup>(٥)</sup>. بمعنى آخر إن التفكير العلمي قد خطى للأمام متجاوزاً التفكير الأسطوري بسؤال الفلاسفة الأوائل عن أصل الكون، وجاءت الإجابة برد ذلك الى مادة أولى كالماء أو الهواء.. الخ .

وفيما يخص العلاقة التي تربط بين المدرسة الأيونية فهم كما يعتقد قرني أنهم قد إجتهدوا لإبداء حججهم العقلية على صواب ما يطرحونه ، وأيضاً عرفت هذه المدرسة بالنقد حيث إنتقد الثاني والثالث كل منهما سابقه مبدياً عدم موافقته على ما قدمه من أفكار<sup>(١)</sup>. نستدل من كل هذا الذي ذكرناه على مسألتين : الأولى هي أن إعتقاد البراهين العقلية هو خطوة تفصلنا عما كان يطرح في الفكر الأسطوري ، حيث اعتمد على ما آمن به من قوى مفارقة للطبيعة ، وليس على الأدلة والحجج العقلية . ولم يصل الفكر الإنساني الى هذه المرحلة إلا بعد مروره بمرحلة طويلة من النقد . والمسألة الثانية يمضي الفلاسفة الأيونيين في تأسيس فلسفاتهم على منهج من النقد، حيث تقدم كل واحد منهم بنقد سابقه ، ثم يؤسس في ضوء هذا النقد موقفاً فلسفياً من الوجود ، كما يتجلى ذلك في أفكار أنكسيمندر الذي إنطلق في نقد رأي طاليس حول المبدأ الأول لوجود الأشياء وكان تساؤله لماذا الماء؟ فهو قد آمن بأن هناك أصلاً واحداً لكل الموجودات، ولكنه لم يجد سبباً منطقياً للإعتقاد أو لترجيح أن ذلك الأصل هو الماء ، وكان من رأيه أن هذا الأصل يجب أن يتضمن خواص كل الأشياء وليس جنساً واحداً منها، وانكسيمانيس الذي انتقد رأي أنكسيمندر لقوله أن الأبيرون هو المبدأ الأول . كذلك يرى أرسطو طاليس أن الفلاسفة الأول لا

يتفقون جميعهم على عدد المبادئ - أي التي تتكون منها الموجودات - أو طبيعتها ، فطاليس يقول : " إن هذا المبدأ هو الماء ، وهو لهذا السبب يعلن بأن الأرض تطفو فوق سطح الماء ، وربما جاءت هذه الفكرة من رؤيته ( غذاء ) أن الأشياء جميعاً لا بد أن تكون رطبة ، وأن الحرارة نفسها تنشأ من الرطوبة وتبقى حية بواسطتها (أو أن ما صدرت عنه هو مبدأ كل شيء) ، ويواصل أرسطو طاليس عرض رأيه حيث يقول : " وقد إستمد فكرته من هذه الواقعة ، أن بذور كل شيء ذات طبيعة رطبة ، وأن الماء هو أصل طبيعة الأشياء الرطبة"<sup>(٧)</sup> ويقصد بهذا أن طاليس قد إستمد فكرة كون الماء هو أصل الموجودات من خلال ملاحظته ، فالحرارة نفسها تنشأ من الرطوبة ، أو أن الرطوبة التي صدرت عنها الحرارة هي أصل الأشياء جميعاً ، وأن الموجودات كلها تستمد غذاءها من الرطوبة ، وأصل الرطوبة هو الماء .

لم يكن رأي طاليس رغم ذلك بمنأى عن النقد حيث إنتقده الفيلسوف أنكسيمندر لإعتباره الماء أصل الأشياء ، فيذكر برتراند رسل أن لأنكسيمندر حجة لإنكار رأي طاليس ، فهو يعتقد بأن العنصر الأول لا يمكن أن يكون ماءً ولا عنصراً آخر غير الماء ، إذ لو كان بين هذه العناصر عنصر أولي لاكتسح العناصر الأخرى. كما يشير إلى أن أرسطو طاليس قد روى عن أنكسيمندر أنه قال : " إن هذه العناصر المعروفة لنا يعارض بعضها بعضاً فالهواء بارد والماء رطب والنار حارة ، وعلى ذلك فلو كان احد هذه العناصر نهائياً لزالَت العناصر الباقية ، قبل اليوم"<sup>(٨)</sup> ، وهنا يتجلى لنا موقف أنكسيمندر النقدي على صورة أكثر تعقيداً باستخدام أدوات منطقية كالمقارنة والمماثلة والتعارض وطرح الأضداد توصل بعد ذلك إلى رأي فلسفي مختلف كلياً عن موقف طاليس ، حيث رأى أن المبدأ الأول للموجودات يجب أن يحتوي على جميع الأضداد فيستمر الصراع بين تلك الأضداد ، فيحاول كل منها التغلب على ضده ، لينتهي الصراع لمصلحة احد الأضداد لمدة محددة ثم يعود مرة أخرى فيتلاشى في اللامتناهي الذي يمثل المادة الأولى للموجودات .

ويعتقد يوسف كرم بأن رفض أنكسيمندر إعتبار الماء هو المبدأ الأول للموجودات ، ذلك لأن الماء هو عبارة عن استحالة الجامد ( الثلج ) إلى سائل بالحرارة ، وهذا يعني أن الحار والبارد سابقان عليه<sup>(٩)</sup> . بمعنى آخر لا يمكن أن يكون عنصر واحد هو مبدأ أو أصل الوجود وهناك عناصر أخرى سابقة عليه ، بل انه قد جاء منها ، فهي أساس وجوده . لقد اعتمد أنكسيمندر في

نقده على البرهان المنطقي والتأمل العقلي وملاحظته لما يجري في هذا الكون من تغيرات فهو يُقر بالصراع بين الأضداد ، لأنه أساس بقائها . كما يؤكد نيتشه أن أنكسيمندر قد تجاوز طاليس ، عندما حل مشكلة التعدد الحاصل في موجودات العالم ، وذلك برده الى طبيعة هذا التعدد المتناقضة كلياً والتي تلتهم نفسها وتعني ذاتها<sup>(١٠)</sup> . يبدو موقف أنكسيمندر الناقد لرأي طاليس في أصل الأشياء واضحاً ، فهو يؤكد بان أصل الأشياء يعود الى المتضادات في المادة الأولى ، وليس كما يعتقد طاليس أن الأشياء تنتج بسبب التغيير في المادة اللانهائية ( الماء ) .

ولم تحظ فكرة اللامتناهي ( الأبيرون ) التي طرحها أنكسيمندر بالقبول التام لدى معاصريه من الفلاسفة فقد جاء انكسيمانيس بفكرة أخرى . منتقداً ما قاله أنكسيمندر ، مشيراً الى أن هناك مادة أساسية محددة هي أصل كل الأشياء وهي الهواء ، فالأشكال المختلفة التي تشاهد حولنا قد نشأت من الهواء ، وذلك بفعل عمليتي التكاثر والتخلخل<sup>(١١)</sup> . رؤية أنكسيمانيس هذه تنسجم مع قول طاليس بمادة واحدة محددة ، كما يعد أكثر تعبيراً عن طابع المدرسة العلمي ، فقد أرجع سبب اختلاف أشكال المادة في هذا الكون لسبب يعود الى طبيعة المادة ذاتها وهو عملياً التكاثر والتخلخل للهواء .

ولم ينتقد أنكسيمندر فقط من قبل أنكسيمانيس بل أن رؤيته للأشياء بأنها في حالة صراع بعضها مع بعض وإتصاف هذا الصراع بالظلم الذي تمارسه الأشياء على بعضها البعض لم تجد ترحيباً من قبل هرقليطس الذي كان يعتقد بأن الصراع هو قانون الأشياء ، بل هو العدل ذاته ، لذا فهو لا يتسبب بأي نوع من الظلم ، إضافة لذلك فإن الصراع بين الأضداد هو الذي يحدث الوحدة الحقيقية<sup>(١٢)</sup> . لقد إنصب نقد هرقليطس على رؤية انكسيمندر للصراع بين الأضداد باعتباره ظلماً ، حيث يتغلب عنصر على عنصر آخر ، بينما يرى هو أن الصراع هو أساس ديمومة هذا الكون وقانونه العادل . ليس هذا حسب بل كما يؤكد كورنפורد ( Cornford ) بأن النزعة الصوفية لدى هرقليطس قد ظهرت رد فعل شديد ضد العقلية الأيونية والاتجاهات الآلية للعلم ... وعليه فمن الخطأ أن نصور هرقليطس بأنه قد عمل على إكمال ما بدأتها المدرسة الملطية<sup>(١٣)</sup> . أي أن هرقليطس قد رفض التفسير الآلي للمدرسة الأيونية الذي إعتد في تفسير الطبيعة ، وأن كان هرقليطس قد قال مثلهم بمادة واحدة لأصل الموجودات وهي النار . وهذا ما يشير إليه زيلر

(Zeller) حيث يؤكد بان موقف هرقليطس أقرب لموقف الفلاسفة الأيونيين القدامى ( طاليس ، أنكسيمندر ، أنكسيمانيس ) منه لفلاسفة إيليا ، وذلك لأنه عد العقل الكوني مرتبطاً بجوهر مادي معين هو النار ، ويؤكد هذا أن هرقليطس قال بمادة معينة لأصل الأشياء كما قال بقية الفلاسفة الأيونيين السابقين عليه ، إلا انه لم يسايرهم بتفسيرهم الآلي للطبيعة .

### ثانياً : النقد مع المدرسة الإيلية

إن مشهد النقد الذي ساد الفلاسفة السابقة على سقراط ، لم يتوقف عند المدرسة الأيونية، بل واصلت المدرسة الإيلية ذلك ، حيث إنتقد فلاسفتها آراء الفلاسفة قبلهم ، فجاءت آراؤهم المعارضة بمثابة رد فعل على السائد ( الموروث ) من آراء ، فقد رفض هرقليطس وبارمنيديس شهادة الحواس إلا أن كلاً منهما إتخذ طريقاً مختلفاً في الوصول الى موقفه الفكري حين رأى هرقليطس أن الحواس تخدعنا ، بأن هناك وجوداً ثابتاً ، وحقيقة الأمر خلاف ذلك ، إذ أن كل شيء في تغير مستمر كما أن بارمنيديس قد أظهر رفضه ناقداً رأي هرقليطس هذا ، حيث رأى بأن الحواس تخدعنا لأنها تظهر لنا الأشياء وكأنها في تغير مستمر وهي الى فناء محقق ، بينما يظهر لنا الواقع خلاف ذلك . فالوجود واحد ثابت لا يتغير<sup>(١٥)</sup> . لقد إعتمدت كلتا النظريتين الفلسفتين على نقد الإدراك الحسي ، لكن إحداهما نقدت ما تسجله الحواس من ثبات نسبي ، بينما نظرت الأخرى الى تركيز الحواس على التغير الذي لا يمس إلا أشكال الوجود الممكنة ؛ لقد جاء نقد بارمنيديس لفكرة هرقليطس " السيلان الدائم " للأشياء ليؤكد على الثبات منكرًا حالة التغير التي رأى فيها هرقليطس إنها ديمومة الوجود فالوجود كما يرى بارمنيديس ثابت كامل لا يتغير ، وهذا يؤكد الجانب النقدي لدى بارمنيديس . لقد رفض هرقليطس كما رفض من قبله رأس المدرسة الأيلية بارمنيديس شهادة الحواس مما جعلنا نعتقد أن هذه الفكرة كانت فكرة مركزية لدى هذه المدرسة .

كما يرى ول ديورانت أن إنكار بارمنيديس للحركة والتغير كان بمثابة ثورة على ميتافيزيقية هرقليطس ، وكذلك كان مذهبه بوحدة الكون ثورة عنيفة على إعتقاد الفيثاغوريين ، الذين حولوا نظرية الأعداد التي قال بها فيثاغوراس الى مبدأ يؤكد على أن الأشياء جميعها تتكون من

أعداد أي من وحدات غير قابلة للإنقسام<sup>(١٦)</sup> . وهذا يعني أن بارمنيدس لم يسلط نقده على فلسفة هرقليطس وحدها - بردها وجود الأشياء الى التغير - بل إنه قد وجه نقده كذلك للفيتاغوريين الذين رأوا أن الأعداد هي أصل الأشياء كلها .

لم يقف بارمنيدس في نقده عند فلسفة هرقليطس وفلسفة الفيتاغوريين ، حيث إستخدم المنطق لنقد جميع المذاهب ( الكوزمولوجية ) السابقة عليه في القرن السادس ق.م ، معترضاً على إفتراض وجود وحدة أولى أو زوج من الأضداد الأولية جاءت منه جميع الكائنات المختلفة<sup>(١٧)</sup> . بكلمة أخرى يبرز الجانب النقدي لدى بارمنيدس باعتراضه على الأيونيين لوجود مادة أولى أو مجموعة من الأضداد هي أصل الموجودات كلها ، وكذلك إنكاره لقول هرقليطس بالتغير ، وإعتبار الفيتاغوريين العدد هو أصل الموجودات .

ونقد بارمنيدس هذا ، يمكن أن يوصف بأنه " نقد ضمني " فهو يقدم بديلاً عن الأفكار التي ينكرها دون أن يمضي في مناقشتها نقاشاً منطقياً يثبت تهافتها ، بل هو يعرض أفكار أخرى يدعمها بحجج منطقية .

أما زينون الإيلي الذي آمن بفلسفة بارمنيدس ودافع عنها فقد تصدى هو الآخر بنقده لمن يعارضون مذهب الوحدة والسكون وهم الفيتاغوريون الذين أكدوا أن الموجودات مؤلفة من أعداد ، أي وحدات منفصلة ، ليثبتوا الكثرة والحركة ، فتوجه زينون لنقدهم محاولاً أن يبرهن على أن القول بالكثرة والحركة يؤدي الى نتائج تتناقض مع دعواهم<sup>(١٨)</sup> . إن رفض زينون لقول الفيتاغوريين بالإنفصال ما هو إلا تأكيد لرأي بارمنيدس ، بأن الوجود ثابت ، أي لا يتغير فهو متصل ، فالإنفصال يؤكد التغير لا الثبات على حال واحدة ، لذلك إعتد زينون في نقدهم على برهان الخلق لإثبات أن الحركة والكثرة ممتنعة . حيث عمل على إيصال التعدد أو الكثرة بلجونه الى حجج عديدة موجهة ضد الفيتاغوريين ، وذلك من أجل تأكيد مبدأ وحدة الوجود الذي وضعه بارمنيدس<sup>(١٩)</sup> . هذا يعني أن موقف زينون النقدي تمثل بإعتناقه لمذهب بارمنيدس في الوجود ودفاعه عنه ضد خصومه . أما عن حجج زينون في نقد الكثرة والتعدد فهي معروفة في تاريخ الفكر الفلسفي لدى كل الطلبة المبتدئين بدراسة الفكر الفلسفي عند اليونان وهي على درجة عالية من التقنية المنطقية ولسنا بحاجة الى تكرارها .

ثم جاء موقف ميلسوس منسجماً مع رؤية زينون ، إلا إنه قد توجه في نقده الى الطبيعيين الأوائل الذين قالوا بالتغير كما يبدو للحس ، فالحس كما يرى ميلسوس كاذب فهو يوقعنا بكثرة متغيرة في الوجود ، بيد أن العقل يشهد بأن الوجود واحد ثابت . ويحاول أن يدحض رأيهم بتأكيدهم على أن ما يدعون له لو كان صحيحاً لكان معنى ذلك إن الوجود ينعدم في كل حالة من حالات تغيره ، وبهذا يخرج الوجود من اللاوجود ، وهو ما ينكرونه ، وعليه فالتغير كما يرى ممتنع والكثرة ممتنعة فالوجود كما يؤكد واحد لا متناه ساكن ثابت<sup>(٢٠)</sup> .

هذا الموقف لميلسوس يبين مدى تأثيره بما قاله بارمنيديس . وهذا ما أشار إليه فلر ( Fuller ) حيث يؤكد أن ميلسوس قد أعاد تكرار وجهة نظر بارمنيديس ، وهي أن الوجود الحقيقي ينبغي أن يكون واحد ، دائم ، دون حركة أو تغير أو تطور أو قسمة لأجزائه ، كما انه يكون بلا تعدد وتنوع لأي نوع ، فهو لا يمكن أن يزيد أو ينقص<sup>(٢١)</sup> . أي أن الوجود ثابت ثبوتاً تاماً لا يطرأ عليه أي شيء خلاف ذلك ، سواء كان حركة أم تجزئة أم تغير... الخ .

نلاحظ أن نقد زينون وميلسوس لكل من الفيثاغوريين والطبيعيين الأوائل - طاليس ، أنكسيمندر ، انكسيمانيس الذين قالوا بالتغير الذي يتم عن طريق التحول من حالة لأخرى ، فعلى سبيل المثال يزداد تكاثف الماء فيتحول الى تراب ، أو بالصراع بين الأضداد بين الحار والبارد وهكذا - كان استمراراً لموقف بارمنيديس ودفاعاً عن رأيه بان الوجود واحد ثابت لا يتغير من جانب ، وإنه لا يمكن أن يأتي الوجود من اللاوجود من جانب آخر .

ويشير ( كوبلستون ) الى أن الإيليين ينكرون الكثرة والحركة ، فهناك مبدأ واحد وهو الوجود الذي تصوره مادياً وبلا حركة ، فهم لم ينكروا إحساسنا بالحركة والكثرة إلا إنهم رأوا أن هذا الإحساس وهم ، أما الوجود الحقيقي فيفهم عن طريق العقل وليس الحس ، كما أن العقل يوضح لنا إنه لا يمكن أن توجد كثرة ولا حركة ولا تغير<sup>(٢٢)</sup> . هذا يلخص لنا موقفهم النقدي بانكارهم للكثرة والحركة ، وذلك لأننا نستدل عليها عن طريق الحواس ، والإحساس وهم ، وعليه فهي أيضاً وهم وليست حقيقية .

## ثالثاً : النقد مع مدرسة الكثرة

نأتي لختام تلك المذاهب بذكر محاولة التوفيق كما جاءت على يد إنبادوقليس وديمقريطس وانكساغوراس التي ظهرت في الفلسفة اليونانية اللاحقة للمدرسة الأيونية والفيثاغورية والإيلية، فنقد هؤلاء الفلاسفة ما طرحه الفلاسفة السابقون لهم ، الذين أكدوا على إعلاء شأن الحواس أو العقل ، فأنكر هؤلاء الفلاسفة التفسير الذي أثار الكثرة والتغير ، (مذهب الطبيعيين الأوائل والفيثاغوريين ) أو أثروا الوحدة والسكون ( مذهب الإيليين ) ، فحاولوا طرح رؤية جديدة من خلال نقدهم لما طرح من آراء . يشير يوسف كرم الى أن هناك ثلاثة فلاسفة متعاصرين عادوا لمعالجة المسألة الطبيعية وهم متأثرون بالإيلية والفيثاغورية، ويشتركون في القول بأن أصل الأشياء كثرة حقيقية ، فلا يوجد تحول من مادة الى أخرى ، وإنما الأشياء تأليفات مختلفة من أصول ثابتة ، ويختلفون في تصورهم لهذه الأصول ، وطرائق إنضمامها وإنفصالها ، وهؤلاء الفلاسفة هم : انكساغوراس وابنادوقليس وديمقريطس<sup>(٢٣)</sup> . هذا يشير الى عودتهم للبحث في الطبيعة وتأثرهم بالفيثاغوريين والإيليين ، بيد إنهم ينكرون عليهم القول بتحول المادة من حالة لأخرى ، وكذلك إنكارهم للكثرة ، فأصول الأشياء لديهم هو كثرة حقيقية .

أكد انبادوقليس – شأنه شأن أستاذه لوقيبوس – بان الوجود موجود ، وليس هناك ولادة ولا موت ، إلا إنه يعتقد بأن بارمنيدس عندما نفى التغير والاختلاف ، قد تناقض مع شهادة الحواس ، فهي أساس كل بدهة ، ذلك أن الأشياء مكونة من عدة جواهر أساسية ، فهناك كما يرى أربعة أصول تتكون منها الأشياء كلها ، وهي : النار والهواء والماء والتراب<sup>(٢٤)</sup> . أنكر انبادوقليس رأي بارمنيدس الذي نفى فيه التغير والاختلاف، فالوجود ثابت ساكن وهو واحد، في حين يرى انبادوقليس خلاف ذلك، فهو بهذا الرفض ينتقد بارمنيدس مؤكداً على وجود التغير والاختلاف ، كما ينتقد الفلاسفة الذين أكدوا على أصل واحد للوجود، فهذا القول لا ينسجم مع رؤيته لأصل الأشياء فهي تتألف من النار والهواء والماء والتراب، ويؤكد بأن هذه المبادئ الأربعة لا يفضل بعضها بعضاً فلا أول ولا ثان هناك، وهي لا تتكون ولا تفسد، فلا يخرج بعضها من بعض كما لا يعود بعضها الى بعض، ولكل منها كيفية خاصة به، فالحار للنار والبارد للهواء والرطب للماء

واليابس للتراب، فلا يوجد تحول بين الكيفيات وتجتمع العناصر وتفترق بفعل قوتي المحبة والكراهية، فالمحبة تجمع الذرات المتشابهة والكراهية تفصل بينها<sup>(٢٥)</sup>. نلاحظ هنا أن انبادوقليس ينتقد الفلاسفة الأوائل لأنهم قالوا بأصل واحد للكون، فليس هناك عنصر واحد أسمى من بقية العناصر الأخرى من وجهة نظره، فهي جميعاً سواء، كما انه انتقد فكرة تحول الكيفيات من حالة لأخرى من أجل تكون الأشياء، فهو يرى أن موجودات هذا العالم تتكون من العناصر الأربعة بنسب مختلفة، فيتصف كل عنصر بكيفية محددة، فهو لم يؤثر مادة على أخرى.

كما إنتقد فكرة تكون الموجودات بصورة آلية بفعل المادة على سبيل المثال بالتكاثف والتخلخل للهواء، فقد أنكر ذلك وجعل تكون الأشياء يعود للمحبة والكراهية. أي انه قد فصل العلة عن المادة الأولى لتكون الموجودات، وبهذه الخطوة خرج على السابقين له.

تأتي فلسفة لوقيبوس وتلميذه ديمقريطس لتجد وسطاً بين الوحدة كما أرادها بارمنيديس، والكثرة كما أكد عليها انبادوقليس. إذ يرى ديمقريطس بأن كل شيء مؤلف من ذرات وهي لا تقبل الانقسام، فهي ذرات خالدة، كانت منذ الأزل وستظل في حركة دائمة أبداً. فليس هناك نهاية لعدد أنواع الذرات التي تختلف بعضها عن بعض من ناحية الشكل والحجم<sup>(٢٦)</sup>. قول ديمقريطس أن أصل كل شيء جزء صغير لا ينقسم، هو الذرة، هو إنكار لقول انبادوقليس أن أصل الأشياء كثرة وهي العناصر الأربعة التي إعتدها (النار، الهواء، الماء، التراب). لقد انسجمت رؤية ديمقريطس مع ما رآه بارمنيديس من أن الوجود واحد، إلا انه أنكر رأي بارمنيديس بالحركة، فالذرات كما يعتقد في حركة دائمة لا تنتهي. نلاحظ أن ديمقريطس بهذا الإنكار حاول أن يجد مذهباً وسطاً بين الإيليين وأصحاب القول بالكثرة.

ويأتي إنكساغوراس ليفسر الوجود من خلال القول بإتصال وإنفصال الجواهر، أي عاد مرة أخرى للفلاسفة الطبيعيين الأوائل والفيثاغوريين من جانب، والإيليين من جانب آخر، وقد أنكر فكرة التغير الكيفي للأشياء التي سبقه فيها انبادوقليس، فأى تغير كيفي لن يكون إلا تغير في التركيب المادي للجوهر<sup>(٢٧)</sup>. بكلمة أخرى حاول انكساغوراس من خلال القول بالإتصال والإنفصال، ورفضه لفكرة التغير الكيفي، أن يؤلف موقفاً وسطاً، بين رؤى من سبقه من الفلاسفة. كذلك إنتقد انكساغوراس انبادوقليس لقوله بالمحبة والكراهية اللتين تجمعان

وتفرقان العناصر لتتكون الموجودات ، حيث يذكر أنهما لا يمكن أن يكفيا لتفسير الحركة ، فالحركة ينبغي أن تكون من فعل موجود تسمو معرفته وقدرته على الموجودات ويجب أن يكون مفكرا ومعقولاً، وهو العقل. فالعقل لا يختلط بأي شيء من الأشياء ، ويتميز عن المادة فهو بسيط غير قابل للقسمة، أما المادة فهي مركبة<sup>(٢٨)</sup> . يبدو أن انكساغوراس يفسر الحركة لا بسبب آلي ولا بفعل قوة مفصولة عن المادة مثل المحبة والكراهية ، فهي غير كافية ، لذا يفسر الحركة بفعل موجود أسى من المادة، فهو بسيط ، والبساطة تشير الى الوحدة ، وبالتالي الى الكمال، أما المحبة والكراهية فتشير الى قوتين وهذا يعني إنها معقدة ، فهي ليست ببساطة العقل ووحدته . لقد كان انكساغوراس يعتقد بأن العقل هو السبب المنظم للأشياء . فالعناصر المادية ليست هي السبب الحقيقي ، بل إن العقل هو الذي عمل على تنظيم المادة وفقاً لقوانين التناسق<sup>(٢٩)</sup> أي أن انكساغوراس طرح علة للنظام في الكون هي أكثر تجريداً وبساطة ، ولهذا فهو ينكر منتقداً قول انبادوقليس بعلي المحبة والكراهية .

## الخاتمة :

بعد محاولة الكشف عن مواطن النقد لدى الفلاسفة السابقين لسقراط ومحاولاتهم لمناقشة الآراء التي كانت سائدة ليقدموا رؤاهم الخاصة بهم والمخالفة لما كان سائداً في الحياة الفكرية الإغريقية ، ربما يكون من المفيد في نهاية هذا البحث أن نكشف عن بعض سمات ذلك النقد وهي كالاتي :

- ١ - إن النقد الذي نعنيه هنا بدأ بطرح بدائل مختلفة للأفكار السائدة ، والذي يمكن أن يلاحظ في مواقف طاليس الفكرية التي تتضمن نقداً للفكر الأسطوري ، تضمنته براهينه على موقفه الفكري المعتمد على البرهان المنطقي والملاحظة الواقعية .
- ٢ - توجه فلاسفة المدرسة الأيونية لنقد بعضهم بعض .
- ٣ - توجه الإيليين لنقد من هم خارج مدرستهم أما من الطبيعيين أو الفيثاغوريين .
- ٤ - أما فلاسفة مدرسة الكثرة وهي المدرسة التي عرفت عنها آراء نقدية بين فلاسفتها أنفسهم ، كما إنهم انتقدوا من سبقهم من الفلاسفة كما عرضنا لذلك خلال البحث . هذا يشير الى أن

المدرسة الأيونية ومدرسة الكثرة قد اختلفت رؤى فلاسفتها رغم إنتمائهم بالأصل لمذهب أو لمدرسة واحدة ، وهذا أكثر تعبيراً عن روح الفلسفة في الجدل ولتناقشة والنقد . أما المدرسة الإيلية فقد إنشغل فلاسفتها بالدفاع عن مذهبهم الفكري ضد خصومهم ، ولهذا لم تطل علينا هذه المدرسة إلا بفكرة واحدة ، وهي الوجود موجود ، وهو ساكن أبداً . بينما اختلفت رؤى الفلاسفة مع المدرسة الأيونية والتوفيقية ، وهذا أضاف سمة أخرى لهذه المدارس وهي سمة الإبداع لا الجمود ، كما هو الحال مع الإيليين الذين كان إبداع زينون وميلسوس في طرائق دفاعهم عما قاله بارمنيديس ومحاولاتهم الجدلية العنيدة لإنكار ما قاله الفلاسفة قبلهم – والتأكيد على صحة رؤيتهم المخالفة للرؤى الأخرى .

ويتضح لنا مما تقدم أن الفكر الفلسفي اليوناني القديم قبل ظهور السوفسطائيين مرّ بمخاضات نقدية أشرنا الى بعض ملامحها في الفقرات الأربع التي سبقت هذه السطور وهي توضح لنا مما يرد على كثير من التساؤلات أن هذه الفكرة التي قمنا بدراستها كانت حافلة ببلنقد الفلسفي المعقد والنقد المضاد وهي التي أفسحت المجال لظهور حركة فكرية على درجة عالية من الوحدة والأنسجام وعلى درجة عالية من التعقيد المنطقي تمثلت بالسوفسطائيين ثم من بعدهم بسقراط وأفلاطون .

## الهوامش :

- ١ - علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٤ ، ص ٢٤ .
- ٢ - فريدريك نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي ، تعريب سهيل القش ، ط ٢ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٤٩ .
- 3 - Burnet . J : Greek philosophy from Thales to Plato , Macmillan & co . Ltd , London , 1961 , P . 18 .
- ٤ - علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان ، ص ١٩ .
- 5 - Cornford . F . M : From Religion to philosophy , Harper Torchbooks , New York , 1957 , P . 297
- ٦ - عزت قرني : أثينا والفلسفة ، عالم الفكر ، م ٣٨ ، ع ٢ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ٢٠٠٩ ، ص ٤٤ .
- ٧ - إمام عبد الفتاح إمام : مدخل الى الميتافيزيقيا ، مع ترجمة للكتب الثمانية الأولى من ميتافيزيقيا أرسطو ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، ط ٢ ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٦٧ .
- ٨ - برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الأول ، ترجمة زكي نجيب محمود ، راجعه أحمد أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩ - ٦٠ .
- ٩ - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار القلم ، بيروت ، ص ١٤ .
- ١٠ - فريدريك نيتشه : الفلسفة في العصر المأساوي ، ص ٥٣ .
- ١١ - برتراندرسل : حكمة الغرب ، ج ١ ، ترجمة فؤاد زكريا ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٣٦ - ٣٧ .
- ١٢ - شارل فرنر: الفلسفة اليونانية ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، دار الأنوار ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .
- 13 - Cornford . F . M . From Religion to philosophy , P . 184 .
- 14 - Zeller . E : Outlines of the History of Greek philosophy , Meridian books , New York , 1955 , P . 61 .
- ١٥ - محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ( الفلسفة من طاليس الى أفلاطون ) ج ١ ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ط ٥ ، ١٩٧٢ ، ص ٧٧ .
- ١٦ - ول ديورانت : قصة الحضارة : ٤ / ٢٠٠ ، ترجمة محمد بدران ، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر ، مصر ، ٢٠٠١ .
- ١٧ - أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

- ١٨ - محمد علي أبوريان: تاريخ الفكر الفلسفي ، ص ٧٨ .
- ١٩ - ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية ، دارالعلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩١ ، ص ٤١ .
- ٢٠ - محمد علي أبوريان: تاريخ الفكر الفلسفي ، ص ٨٢ .
- 21 - Fuller . B . A . G : A History of philosophy , revised , ed , Henry Holt and co , INC , U.S.A , 1952 . P . 68 .
- ٢٢ - فردريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة في ( اليونان والرومان ) : ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ١٥٣ .
- ٢٣ - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٣٥ .
- ٢٤ - شارل فرنر: الفلسفة اليونانية ، ص ٤٣ .
- ٢٥ - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٣٦ .
- ٢٦ - برتراندرسل: تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ١١٦ .
- ٢٧ - محمد علي أبوريان: تاريخ الفكر الفلسفي ، ص ٨٩ .
- ٢٨ - المصدر السابق: ص ٨٩ - ٩٠ .
- ٢٩ - شارل فرنر: الفلسفة اليونانية ، ص ٥٢ .